1 الفصـل

محطات الانطلاق

عنيزة وما بعدها

تتجسَّد قصة عبدالعزيز عبدالله الزامل - بل وتبدأ فعليًّا - مع بداية تاريخ عائلته.

وُلِد والد عبدالعزيز؛ عبدالله حمد الزامل، في مدينة عنيزة في أواخر القرن التاسع عشر، وهي المدينة التي تبعد مسافة ثلاث مئة كيلومتر شمال غربيِّ الرياض، وتقع في منطقة القصيم، وهي منطقة داخلية تُعدّ في الوقت الحاضر من أغنى مناطق المملكة العربية السعودية. ونظرًا إلى موقع عنيزة في نجد القديمة، فتُعدّ مركزًا تجاريًّا نشطًا، وتتصل بالرياض بواسطة طريق سريع، وفي مطلع القرن العشرين كانت هذه البلدة والقرى المحيطة بها متواضعة، واقتصرت وسائل السفر إليها على السير على الأقدام، أو على ظهور الجمال أو الخيول.

يرجع أصل عائلة الزامل إلى جنوبي المملكة العربية السعودية، ولكن العائلة هاجرت شمالًا، واستقرت في عنيزة في أواخر القرن الرابع عشر، صانعةً تاريخها العريق. وقد رَأَسَ عدد من أفراد العائلة مناصب في الحكم بصفة أمراءَ لعنيزة، ونجد عند عالم الآثار والكاتب الإنجليزي تشارلز داوتي الذي ارتحل إلى نجد في أواخر القرن التاسع عشر وصفًا لعنيزة، إذ يقول:

> «في مثل هذه الواحات ذات الحكم الذاتي، مثل عنيزة، يحمل رجال البلدة خلافاتهم لمجلس الأمير، في حين كان القرويون في معظم المناطق الأخرى منقسمين بعضهم على بعض».

في مطلع القرن العشرين كان أقل من 5% من الشعب السعودي يجيدون الكتابة أو القراءة، وعن ذلك يقول عبدالعزيز الزامل: «لم تكن هناك مدارس على الإطلاق في المناطق الوسطى من المملكة العربية السعودية، وقد كسب بعض الناس المتعلمين رزقهم من خلال تعليم التلاميذ في الكتاتيب، ولكنّ عددًا قليلًا من أمراء تلك المنطقة أبْدَوا الاهتمام بتعليم أولادهم، وعدَّه آخرون غير ملائم لهم».

ولكن جدَّ عبدالعزيز لأبيه؛ الشيخ حمد بن عبدالله الزامل، كان مختلفًا؛ إذ كان من الشخصيات الاجتماعية والدينية المعروفة في عنيزة، إضافة إلى كونه مزارعًا وتاجرًا، وقد وُلِد ابنه عبدالله عام 1900م، وهو أحد أولاده الخمسة، وهم: ولدان، وثلاث بنات. وكانت والدتهم، ابنة علي السليم، إحدى النساء النبيهات والمتدينات، وعُرفت بحفظها الكامل للقرآن الكريم، إضافة إلى كرمها الشديد، يقول عبدالعزيز واصفًا جدته:

«تمكنتْ من تعليم أولادها القرآن الكريم، وفي ذاك الوقت كان حفظ القرآن الكريم وتعليمه يُعدّ إنجازًا عظيمًا للمرأة».

تعلَّم عبدالله القراءة والكتابة، واكتسب حبهما، ففي عمر السابعة بدأ يتعلم قراءة القرآن وحفظ أحاديث الرسول ﷺ في أحد مساجد عنيزة، وحظي بالتشجيع من قِبَل والديه، ويتذكر عبدالعزيز الزامل أجداده، فيقول: «لم نكن من الأثرياء، ولكن كنّا أكثر رفاهية من كثير من الناس في تلك المنطقة»، ويتذكَّر في السنوات اللاحقة أن أباه عبدالله: «تعلَّم القراءة والكتابة، ولكنْ كان خطه رديئًا، وما زلت أذكر رسائله التي كانت تصلني عندما كنت أدرس في الخارج، والتي كان يصعب علي قراءتها!».

كان عبدالله فتى حاد الذكاء، ويرغب في الاستفسار عن كثير من الأشياء، إضافة إلى كونه شجاعًا، وكان لديه عدد قليل من الأشخاص الذين عدَّهم قدوة له، وبذلك سرعان ما أدرك عدم توافر فرص تلبي طموحه في عنيزة، وأدرك أيضًا أن ثمة آخرين كثرًا توجهوا إلى مكان آخر لتحقيق أحلامهم، وعن ذلك يتذكر عبدالعزيز، فيقول:

«عاش والدي حياة مريحة، ولكنه لم يكن غنيًّا؛ فقد كانت الزراعة محدودة المساحة، وكانت تربية الإبل النشاط الاقتصادي الرئيس في عنيزة، إضافة إلى النشاط التجاري، وكان ذلك، بالتأكيد، قبل اكتشاف النفط في المملكة العربية السعودية، وكان الناس الذين لديهم طموح يفكرون في الهجرة باتجاه الساحل الغربي أو إلى الشمال، (وكانوا يأخذون الإبل إلى سوريا وفلسطين ومصر)، أو إلى المنطقة الشرقية، ومنها إلى العراق والخليج العربي والهند».

وعام 1908م ضربت موجة جفاف شديدة منطقة نجد الوسطى، واستمرت سنوات عدة، وشهد عبدالله الزامل المحاولات الشاقة لوالده المزارع الذي يعتمد اعتمادًا كبيرًا على الأرض، وتزامن ذلك مع تنامي طموحات عبدالله الخاصة، وعام 1918م قرَّر عبدالله التوجه شرقًا؛ لكسب الثروة وتحقيق حياة أفضل، وقد استقر بعض أعمامه في الأحساء في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية وفي البحرين، وبدؤوا عملهم في التجارة، وكانت كلٌّ من الأحساء والبحرين تُعدّ من أهم المناطق التجارية النشطة.

بإمكان عبدالله الزامل، اليوم، أن يستمتع بإمكانات السفر المريحة للمنطقة الشرقية؛ حيث السيارة التي تحتوي على مكيِّف هواء، والتي تسير على طرق سريعة، وذلك خلاف ما كان عليه الوضع عام 1919م، حين كانت طريق الرحلة طويلة وشاقة. ومع أربعين ريالًا فرانسيًّا فقط كانت بحوزته «أعطته إياها أخته التي كانت كثيرًا ما تساعده»، انضم إلى مجموعة من أصدقائه الذين قرروا أيضًا السفر خلال الصحراء، واستمرت الرحلة ثمانية عشر يومًا، سافروا خلالها مصطحبين معهم جملًا واحدًا كان يحمل أمتعتهم.

لم تكن الدولة السعودية الحديثة قد قامت بعدُ، وكانت الحملات التي يقوم بها توماس إدوارد لورنس جارية في المناطق التي عرفت اليوم بالمحافظات الغربية من المملكة العربية السعودية، في منطقة الحجاز، في حين كانت الحرب العالمية الأولى تقترب من نهايتها الدموية، وقد تجسَّدت هذه النهاية في شبه الجزيرة العربية باستسلام الحامية التركية في المدينة المنورة في نوفمبر/ تشرين الثاني من عام 1918م. وقد قُسِّمت الأراضي التي أصبحت اليوم المملكة العربية السعودية إلى أربع مناطق مستقلة: الحجاز، ونجد، وجبل شمر، وعسير. وإثر تمكن ابن سعود من ضم جازان الواقعة على الحدود مع اليمن، ونجاحه في إخماد التمرُّد في المنطقة الغربية، توحَّدت المناطق الأربع تحت حكم حاكم واحد.

آفاق جديدة

لم يكن لنزاعات الحرب العالمية الأولى تأثير كبير في أوضاع عبدالله البيتية، أو في الوجهة التي يختارها، ولكن الجفاف، والفقر، وعدم توافر الفرص، كانت كلها عوامل دفعته إلى الرحيل إلى المنطقة الشرقية، فتوجَّه مع أصدقائه إلى الجبيل، على ساحل الخليج العربي في المنطقة الشرقية، التي تُعدّ اليوم ثالث أكبر منطقة في المملكة العربية السعودية، وهناك استقر بعض أهله ومعارفه الذين قدموا من عنيزة، وتمكن عبدالله من الحصول على وظيفة للعمل مع أقربائه، وسرعان ما تمكن من المشاركة مع أصدقائه، يقول عبدالعزيز:

«كان والدي رجلًا صادقًا وعادلًا؛ لذلك اكتسب سمعة طيبة، بين رجال الأعمال في المنطقة».

بعد قضاء عبدالله أشهرًا عدة في المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية، وجد فرصة أفضل لإطلاق طموحاته التجارية، وقرَّر أن يغتنم الفرص في دولة البحرين، ويبيِّن عبدالعزيز ذلك، فيقول:

«لم تكن الحالة الاقتصادية في المناطق الشرقية للمملكة العربية السعودية جيدة، ولم يكن النفط مكتشفًا حينها، وكانت شركة (أرامكو) السعودية (كان اسمها سابقًا شركة النفط العربية الأمريكية، وتُسمَّى الآن شركة النفط السعودية) غير موجودة، وكان البحرينيون يشتغلون في تصدير اللؤلؤ واستيراد المنتجات الزراعية والملابس، وقد لاحظ والدي نمو الاقتصاد البحريني السريع، وهذا ما دفعه لإنشاء مشروعه الخاص، وساعده على ذلك وجود بعض معارفه هناك».

كانت جزيرة البحرين الصغيرة واقعة في ذلك الوقت تحت سلطة بريطانيا العظمى، وكانت مشهورة بصيد اللؤلؤ، ونظرًا إلى وقوعها على طرق تجارية مهمة، وفَّرت البحرين بيئة عالمية أكثر من المنطقة الشرقية، وكان لها شعبية كبيرة بين التجار السعوديين الشباب، والعائلات القادمة من منطقة نجد، ونشأ عن ذلك اتصالات وعلاقات قوية بين البحرين وشرقيِّ المملكة العربية السعودية؛ لوجود عادات وتقاليد عدة مشتركة بينهما، يقول عبدالعزيز الزامل:

«يستطيع البحريني القدوم إلى المملكة العربية السعودية دون أن يشعر بالغربة، وكذلك الحال بالنسبة إلى السعودي عند ذهابه إلى البحرين».

من بين الأسر التي استقرت في البحرين كان هناك بعض الأفراد من عائلات القصيبي، والبسّام، والقاضي، والذكير، والزامل، وكوَّنت هذه العائلات شبكة اجتماعية متقاربة، تعيش في المنطقة نفسها، ويلتقي أفرادها مرتين على الأقل أسبوعيًّا، ولعدم وجود فنادق في البحرين كان الشباب الذين يصلون إلى هناك يقيمون مع العائلات السعودية، ويعملون في المركز التجاري أو على أرصفة الموانئ؛ لكسب رزقهم، وللتمكن من العيش بالاعتماد على أنفسهم، ومما شجَّع الشباب السعودي على الانتقال للعمل في البحرين، طبيعة البحرينيين المضيافة، وتوافر فرص عمل كثيرة فيها.

استقل عبدالله الزامل قاربًا من ميناء العقير للوصول إلى البحرين، التي تبعد 55 ميلًا جنوب الظهران، و50 ميلًا شمال شرقي الهفوف، عند وصوله هناك، وبفضل خبرته التجارية تمكّن من عقد شراكة مع عمه وأبناء عمومته من عائلة الروق. يتذكر عبدالعزيز ذلك، فيقول:

بدأ والدي شراكة مع بعض أقاربه في محل لبيع المواد الغذائية، ولكن بعد سبع سنوات أو ثمانٍ، قرروا فض عقد الشراكة، وسلك والدي طريقًا آخر، وتمكن بعد ذلك من تأسيس مشروعه الخاص في تجارة المواد الغذائية والمنسوجات والملابس، وكذلك بدأ استيراد الشاي والأرز والقمح من الهند أو العراق والملابس من سوريا.

أصبح عبدالله يسافر بانتظام إلى سوريا؛ لاستيراد الملابس وغيرها من اللوازم، وفي الثلاثينيات أصبح لديه مصالح تجارية واسعة في البحرين وفي المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية.

أدَّت طفرة النفط في البحرين عام 1932م إلى تحفيز اقتصاد البلد الصغير وتجارته النشطة مع الهند والعراق، وأدَّى اكتشاف النفط إلى انتشار التعليم، وسرعان ما أصبحت البحرين أعلى البلدان في المنطقة من حيث نسبة المتعلمين فيها.

كان عبدالله من أوائل الذين لاحظوا أن النمو الاقتصادي سيحرك سوق القطاع العقاري، ولاحظ تهالك بعض المباني السكنية قرب متجره الخاص، وكانت هذه العقارات تابعة للحكومة البحرينية التي كانت قد استثمرت في العقارات نيابةً عن الشباب الذين ورثوا تلك العقارات، ولكنهم لم يكونوا ضمن السن القانونية للإدارة والتحكم فيما ورثوه، وبصفة عبدالله رجل أعمال حقيقيًّا، رأى في ذلك فرصته. يتذكر عبدالعزيز ذلك بقوله:

كان متجر والدي يقع في وسط عاصمة البحرين، المنامة، في شارع التجار، وقد أدرك والدي أن الحي أصبح قديمًا، ولهذا اتصل بالحكومة؛ لمعرفة إمكانية استئجار العقارات المملوكة لها بأجر منخفض.

كانت خطة والدي تقوم على الآتي: لنفترض أن إيجار المبنى كان يحقق دخلًا مقداره 10 آلاف دولار فقط للحكومة سنويًّا، كان والدي يقول للمسؤولين الحكوميين: «أنا على استعداد لدفع 20 ألف دولار للإيجار السنوي لذاك المبنى، مع عقد إيجار عشرين سنة، وسوف أهدمه، وأبني مبنى جديدًا مكانه»، وعن طريق اقتراض والدي للمال من مصادر موثوقة، تمكن من البدء في بناء المباني وتأجيرها، وقد حصل على مبانٍ كانت تضم متاجر في طابقها الأرضي وشققًا في طوابقها العليا، فكان يعمد إلى هدمها وبناء مبانٍ جديدة، ولكون المباني التي بناها جديدة، فقد تمكَّن من تأجيرها بأجرة أعلى، وعندما انتهى عقد الإيجار أُعيدت ملكية المباني إلى البلدية أو الدولة.

أصبح هذا المنهج المبتكر يعرف باسم نموذج (البناء، والتشغيل، ونقل الملكية)، وكان والدي أول شخص في البحرين يفعل ذلك، مع رضا الحكومة التام عن ذلك؛ لأنها كانت تكسب أكثر، ثم إن أبي كان يرجع الملكية إلى الحكومة بعد عشرين سنة، وهكذا انتقل أبي من تجارة المواد الغذائية والمنتوجات الجاهزة إلى العقارات في ثلاثينيات القرن الماضي.

وفي هذه الأثناء كانت هناك تغييرات مهمة تحدث في شبه الجزيرة العربية؛ فطوال حقبة العشرينيات من القرن العشرين، عمد (سلطان نجد)، عبدالعزيز بن سعود، إلى توحيد الأراضي العربية، وأعلن في 23 سبتمبر/ أيلول من عام 1932م قيام

المملكة العربية السعودية، وفي السنوات اللاحقة ابتكر الملك عبدالعزيز تدريجيًّا الإطار الإداري للدولة الجديدة، ومع ذلك ففي ثلاثينيات القرن العشرين وأربعينياته لم تكن الإجراءات رسمية بعد، وكانت تلك أحد العوامل التي مكَّنت عبدالله من البقاء والاستقرار في البحرين، ولم تكن الحدود بين الدولتين عائقًا له في تنقلاته، ولأن العملة السعودية لم تكن قد خرجت بعد إلى حيز الوجود حتى عام 1951م، فلم يكن عبدالله في حاجة إلى التعامل مع النقد الأجنبي، ولم يكن في البحرين سفارة سعودية، ولا وجود لعلاقات دبلوماسية بين البلدين «كان هناك اتصال مباشر، وكان عليك فقط إظهار بطاقتك الشخصية وورقة السفر لعبور الحدود»، يقول عبدالعزيز الزامل:

> أذكر في إحدى المرات أن والدي أراد عبور الحدود للبحرين برفقة أبناء أخيه، وعلى الرغم من عدم حيازتهم أوراقهم الرسمية، فقد تمكنوا من العبور؛ لأن ضباط الحدود كانوا يعرفون والدي جيدًا، إذ كانت الأمور سهلة جدًّا حينها.
>
> وفي وقت لاحق، بعد اكتشاف النفط في المملكة العربية السعودية، انعكس تدفق الحركة؛ فقد بدأ البحرينيون يهاجرون إلى المملكة العربية السعودية، ويعملون في الظهران، وعملوا في (الشركة السعودية أرامكو)، وعُدُّوا كالمواطنين السعوديين، وكانوا يسافرون إلى بلدهم كل عطلة نهاية الأسبوع، ويعودون إلى المملكة العربية السعودية في بداية الأسبوع الجديد، إذ بدت العلاقات بين البلدين أبدية، وكانت الحرية أكبر في ذلك الوقت، وقد سبق هذا الترابط الوثيق تأسيس مجلس التعاون الخليجي.

والسبب الآخر الذي دفع عبدالله إلى الاستقرار في البحرين، هو الإمكانات التي توفرها البلد للحياة العائلية وللتعليم، وبعد أن أنشأ مصالحه التجارية عاد إلى مسقط رأسه في عنيزة؛ للبحث عن زوجة، وعام 1931م تزوج منيرة الزامل، وهنا يستدرك عبدالعزيز، ويشرح:

> لم يسمح لها والداها بالسفر إلى البحرين؛ إذ «إنها لا تزال صغيرة»، فسافر والدي، وهو حزين للعيش في البحرين من دون زوجته، وفي السنة المقبلة رجع إلى عنيزة، وطلب منها الذهاب معه إلى البحرين، ولكن عائلتها كانت لا تزال غير راغبة في ذلك.

لم يترك عبدالله أي عائق يقف في طريقه؛ لذلك سعى إلى الزواج من أخرى، وعام 1934م تزوج مضاوي من عائلة الذكير، وعن ذلك يشرح عبدالعزيز، فيقول:

> وافق والداها على ذهابها معه إلى البحرين؛ فقد كانا منفتحين على العالم الخارجي، وسافر أقاربها إلى العراق والبحرين، وكانوا معروفين جيدًا في العراق وبغداد في مجال التجارة وغيرها، وهكذا أخذ والدي والدتي معه إلى البحرين.

وبوجود الزوجة الثانية في البحرين، وافق والدا زوجة عبدالله الأولى على ذهابها والانضمام لزوجها. يقول عبدالعزيز: «بعد وصول والدتي مباشرة كتب والدا والدتي (الأخرى): نحن موافقون على ذهابها معك إلى البحرين؛ ولذلك جاؤوا، وعاشوا معًا، وهكذا كبرت العائلة».

حرص عبدالله الزامل كذلك على زيارة عنيزة باستمرار، ويقول عبدالعزيز في هذا الشأن: «مهما كثرت انشغالات الشخص، فإنه لا يمكن أن ينسى المكان الذي وُلِد فيه».

* * *